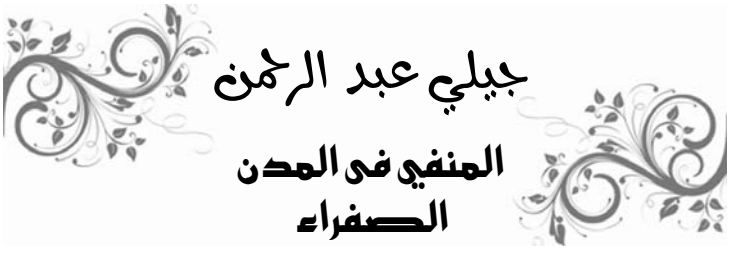

جيلي عبد الرحمن

المنفي فى المدن الصفراء

يمثل السودان دائما امتداداً لمصر.. حباً.. وشمساً.. ونيلاً.. وعطاء.. أما شعراؤه فيحملون لمصر فى قلوبهم عشقاً خاصاً يتوارثه أجيال المبدعين جيلا بعد جيل.

ووقفتنا الآن مع أحد الشعراء البارزين فى الساحة السودانية.. وإن كان قضى عمره منفياً فى شرق العالم وغربه.

وقفتنا مع الشاعر جيلي عبد الرحمن الذى ولد فى قرية (صاي) بشمال السودان.. عام 1931 وتلقي تعليمه فى الكتاب.. لكن أباه هاجر إلى القاهرة مطرودا من الإنجليز عام 1934.

والتحق جيلي بالأزهر عام 1947 وكان أبوه يعمل فى قصر الملك فاروق بأنشاص ـ شرقية.

وتفتحت مواهب جيلي فى سن مبكرة وصار يحضر صالون (سلامة موسى) وندوة (الجرنوسي) وغيرهما.

وبرز جيلي مع رفاقه السودانيين: تاج السر الحسن ـ ومحمد الفيتوري ـ ومحى الدين فارس ـ وحسن عباس صبحي.. وأطلق عليهم د. محمد النويهي (شعراء المهجر الجديد).

انتسب إلى الحركة الشيوعية وسجن.. وطرد إلى السودان وأفرج عنه عام 1953.

والتحق بالصحافة فى جريدة الشعب.. ثم المساء.. واضطر إلى الهروب إلى موسكو عام 1962 ليعود مرة أخرى إلى مصر فى يوليو 1975 لكن السلطات المصرية أعادته على الباخرة نفسها إلى موسكو..

حصل على الماجستير والدكتوراه من معهد الاستشراق فى موسكو ثم عمل أستاذا فى المعهد.

فى عام 1977 عمل أستاذا بجامعة اليمن حتى عام 1983 ثم ذهب إلى الجزائر.. وتوفى فى القاهرة عام 1990.

له ديوان: الجواد والسيف المكسور ـ وديوان: بوابات المدن الصفراء.. وكان يتنقل بين بلاد العرب والعالم باحثا عن مكان يستقر فيه بلا جدوى فمن القاهرة إلى موسكو إلى عدن إلى الجزائر إلى بغداد إلى الخرطوم.. لكنه فى كل منفي كان يحلم دائما بوطنه أو على حد قوله:

إنا افتديناك

انتظرناك الليالى والحقب

دميت خطانا فى المنافى الموحشات

من السَّغب

حتى تظل لواءنا الخفاق يا شيخ العرب

ويصيح بقارته السوداء أفريقيا.. حتى تنتبه إليه وإلى أبنائها المقهورين فى كل مكان:

أفريقيا يا أفريقيا

إن كان الصدر الذاوى يشخب عرقاً مسودا

يسقى ذهباً مطموراً فى أوغندا

يشكو الظلماءَ إلى الأنجم

يبغى نورا.. صيدا

واختال الإنسان على المريخ

أشعل تبغا فى الصاروخ

ألقى فى الصحراء جحيماً

أفريقيا مازالت فى الأعماق صبابة شعر

لقد أعطت الغربة لجيلي عبد الرحمن فرصة تأمل للحياة.. والكون والبشر لكنها حرمته من الاستقرار النفسي والذهنى.. مما صبغ شعره بالحزن والكآبة لافتقاده الفرح والبهجة..

يقول فى قصيدته (أحزان الغربة):

حتى قاع الغربة

حتى أسمال الحزن الجدبة

منكفئا فوق جدار الوحدة يفرى قلبه

إنسان يقضى هذه الليلة نحبه

*****

مركب أحبابى تاهت.. أين؟

عامان.. وما زال البين

السفح الساجى تشجيه

الأغنية العذبة

*****

وطنى يا حائط مبكانا

أشلاء الشمس المنتحبه

وزغاب النجم نسيناها

والليل المضفور الرهبه

الحزن جليدى الوجه.. خريفى الغربه

والشوق يشد خطانا للشط

أيا رحمته الرحبة

يفرى قلبه

أنهار الثلج.. حدائقه

لا تطفئ جدبه..

هذا هو إحساسه العميق بالغربة والنفي عن وطنه.. وهو إحساس ممض حزين يجعل الإنسان متوقعا للموت فى كل لحظة.. وهو هنا صار له عامان بعيدا عن وطنه.. فهاجت الذكريات فى وجدانه وتجمد الحزن فى وجهه.. وصار منكفئا على ذاته راضياً بقدره.

ولأنه لاقى ألوان التعذيب والتشريد.. نجده يصف لنا بعضا من هذه الألوان فى قوله:

جاء الخصيان بليل

كالمومس كاب

وتجندلت شهيدا بين الأرز

وبين الأنجاب

هل يذبح نصل من صدف

أوردة الشاعر

والإلهام يشع بعينيه

رؤى وقياثر..

وتدثرت الجدران المطرقة بجلد الأفعى

والحائرة البائدة

تصيخ كريف أقعى

لم يحر الطيف الضامر نطقه

الكلم الكاذب قد أدمى حلقه

ويحس الشاعر بأن أوراق عمره تتساقط ورقة ورقة.. وأنه وجيله قد لقيا العناء والحياة القاسية.. وشابت رؤوسهم.. واقتربوا جميعا من الموت.. فيهمس فى حزن فى قصيدته (المرفأ والتابوت):

تساقطت كالتوت أيامنا

وخلفت وراءها البيوت

يا أيها الجيل الذى ما عانقت رؤاه

obeikandl.com

تكلم الوجوه

الدمع لا يزال فى كهوف العنكبوت

والشيب فى الرءوس

والزمان كالمشدوه

- - - - -

كيف انحنت بالله تلك القامة

وأين يا أبى الشباب والوسامة

- - - - -

هذا طاقم أسنانى

أخفيته عن وجهى الحانى

فلتنظرى فى اللثة السفلى

شيئا كمثل الدوده الحبلى

شيئا يثير القئ فى الثانى!

وقد خرج جيلي عبد الرحمن من تجربة حياته بفلسفة خاصة تؤكد لا جدوى الحياة وتؤكد ضياع الإنسان فى زحمة المدن التى طاف بها ونفي بها.. فجاءت تأملاته حزينة حائرة:

وحائرون ـ مثلما رأيت ـ فى المدينة

وضائعون كالقوافل المسكينة

أيامنا فى زحمة الحياة لا أبعاد

سوى نحيب القلب فى السهاد

وريشة تصر فوق كومة الورق

تبتل بالدخان والعرق

حياتنا.. يا ذلة الحياة

فى الرصيف..

على جبين شيخ يرعش اليدا

عروقها تستصرخ الرغيف

والشارع المنهوك نهرٌ

يبلع الصدى

وهكذا تنتهى حياة جيلي عبد الرحمن بؤساً وحيرة وألماً ويسجل كلماتـه من ذوب قلبه المملوء بالحزن والأسى والإحساس بالغربة والنفي.

obeikandi.com